«وريثات الشرّ»: بنات الحرب في الجزائر

أمال قرامي

«الصمت يعني الموت
إذا تكّلمت فإنّهم يقتلونك.
إذا التزمت الصمت فإنّهم يقتلونك.
لذا تكلَّم ومُتْ».

الطاهر جعوط

مقدّمة

إذا كان التاريخُ تاريخًا ذكوريًّا يعكس قيَمَ الرجال وتصوّراتهم، ويُخبر عن علاقاتهم وسيَرهم وأفعالهم وخطاباتهم ورؤيتهم للحياة والكون، فليس من المتوقّع أن يكون حضور النساء في المؤلَّفات التاريخيّة حضوراً متميّزاً، وأن نعثر على كلّ تفاصيل حياتهنّ اليوميّة وأنماط علاقتهنّ وقيمهنّ وتمثّلاتهنَّ للسلطة والزواج والحياة والموت والدّين والقانون وغيرها. وإذا علمنا أنّ الحروب تُتمثّل على أنّها مجال ذكوريّ بامتياز يحتكرها شيوخ القبائل والحكّام والخلفاء وغيرهم فيقرّرون زمن اندلاع المعارك وطرائق خوضها ويبرمون التحالفات ويُحدِّدون الغنائم ويضبطون عقود تبادل الأسرى وصفقات السلاح وغيرها فهِمْنا لِمَ لم يضع أغلب المؤرِّخين وكُتّاب السِّيَر وغيرهم النساءَ في دائرة اهتمامهم؟ ولِمَ لم يتوقّفوا طويلًا عند أخبارهنّ وأشكال فاعليّتهنّ؟

وقد انتبهت الدّارسات العربيّات إلى الإشكاليّات التي تطرحها كتابة التاريخ من وجهة نظر ذكوريّة فعملْنَ على تجميع المادَّة المبثوثة في كُتب التراث (تاريخ، فقه، حديث، فتاوى، أدب، حسبة...) في محاولةٍ لتأسيس تاريخ النساء وإبراز أشكال مشاركتهنَّ في بناء الحضارة، إنْ كان على مستوى إنتاج المعارف أو التراث المادِّيّ والرمزيّ وغيره[1]. ولم يقتصر عمل الباحثات على إبراز فاعليّة النساء في زمن الاستقرار والسِّلم فحسب، بل ألفيناهنّ حريصات على تحديد مختلف الأدوار التي نهضت بها النساء في الحروب والصراعات كالوساطة والدعم والتدبير وحماية الجرحى والعمل المسلّح وغيرها[2].

وقد ازداد اهتمام عدد من الكتّاب/ات والدّارسين/ت في السنوات الأخيرة، بمبحث الحروب والنِّزاعات والتهجير والنَّفي، فانكبّوا على تحليل دَور المؤسّسات والأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والأمنيّة وغيرها في استفحال الحروب والصراعات، موضّحين مختلف الأدوار التي يضطلع بها صنّاعُ القرار ومنتقدين، في الوقت ذاته، مختلف السياسات[3]. ولم يفُت عالِمات الاجتماع والمحلّلاتُ النفسيّات والمؤرّخات، إبرازَ مشاركة النساء في حروب التحرُّر من الاستعمار، وتحليل علاقاتهنّ (الاجتماعيّة والجندريّة والحزبيّة) القائمة على السلطة، والتمحيص في عددٍ من المسائل الأخرى ذات الصلة ببناء الأنوثة/الذكورة في سياق الحروب والنِّزاعات[4]. وفي السياق نفسه، رصدت

(1) نشير إلى الأعمال المنضوية تحت مؤسّسة «المرأة والذاكرة» في مصر، ومجموعة من الأعمال التونسيّة كنساء وذاكرة: مؤلّف جماعيّ، **تونسيّات في الحياة العامّة 1920 ـ 1960** (تونس: مركز البحوث والدراسات، 1993) وبعض المقالات الواردة في المؤلّفات الصادرة عن «تجمّع الباحثات اللّبنانيّات».

(2) نشير مثلاً إلى: فاطمة قاسم، **النساء الفلسطينيّات: سرديّات تاريخيّة وذاكرة مجندرة** (لندن: دار «زيد بوكس» البريطانية، 2011). رجاء الحضري، «قبسات من تاريخ المرأة المغربيّة المجاهدة،» **موقع مؤمنات**، متاح على: قبسات من تاريخ المرأة المغربيّة المجاهدة ـ مومنات نت (mouminate.net). سمية المغراوي، «نساء مغربيات صنعْنَ تاريخ المغرب،» **موقع تاريخ المغرب**، متاح على: نساء مغربيّات صنعن تاريخ المغرب | موقع الدكتور خالد الرامي (drrami.net).

(3) نشير مثلاً إلى: سمر يزبك، **تسع عشرة امرأة: سوريّات يروين** (روما: منشورات المتوسط، 2018).

(4) نشير مثلاً إلى:

Dalila Iamaréne-Djerbal, «Les Violences à l'encontre des femmes et des enfants an Algérie: Témoignages et réflexions,» in, *Les femmes entre violences et stratégies de liberté Maghreb et Europe du sud, sous la direction de Christiane Veauvy, Marguerite Rollinde et Mireille Azzoug* (Bouchene, Paris, 2004), 123-132. Zahra Ali, «Offensive contre les femmes en Irak,» Orient xxi, accessed13-8-2021. Offensive contre les femmes en Irak (orientxxi.info).

مجموعة من الباحثات أدوار النساء التقليديّة والجديدة في أزمنة الصراعات والحروب، ونقلتِ الروائيّات تجارب النساء وخبراتهنّ المتراكمة وأشكال تعبيرهنّ عن الخوف، والحزن والأمـل... في بلدان استمرّت فيها الحروب والصراعات لسنواتٍ طويلة[5]. وانشغل المُشرفون على الإنتاج السينمائي والمسرحي والدرامي والتشكيلي[6] بدورهم، بتيمة الحرب ورأوا أنّها جديرة بالمُعالَجة الفنيّة.

غير أنّ هذا الإنتاج الأكاديميّ والثقافيّ الذي جَعَلَ فئة من النساء مرئيّات لم يكترث، في الأغلب، بفئة عمريّة نرى أنّها جديرة بالمُتابعة والتقصّي، ونعني بذلك الطفلات والمُراهقات اللّواتي بقيْنَ خارج دائرة التحديق. كما أنّ صاحبات هذه المبادرات الهادفة إلى إنصاف النساء تاريخيّاً وتحقيق مرئيّتهنّ وبناء الذاكرة النسائيّة الجمعيّة لم يُحلّلْنَ بالقدر الكافي تجارب النساء والمُراهقات والفتيات في سياق الصراعات والحروب في مختلف العصور، وإن كنّ، في الواقع، قد رصدْنَ معاناة النساء وآلامهنّ واهتمَمْنَ بأشكال حضورهنّ، ونظرْنَ في مسؤوليّتهنّ في تأجيج الحرب أو في فضّ النِّزاعات وبناء السلام.

وانطلاقاً من هذا التجاهُل أو التغييب أو التهميش أو العمى الإداركـيّ، ارتأينا أن نرصد علاقة الطفلات والمراهقات الجزائريّات بالنِّزاعات والحروب والأزمات متوقّفين عند تجربتَيْن: تتمثّل الأولى في حرب التحرير 1954 ـ 1962[7]، وتكمن الثانية في الحرب الأهليّة: «العشريّة السوداء» في التسعينيّات من القرن الماضي[8]. أمّا مبرّر هذا الاختيار فيعود إلى أنّ الحقبتَيْن التاريخيّتَيْن تعكسان رؤيتَين مختلفتَين. فبينما كان الآخر البرّاني

(5) أنظر/ي مثلاً روايات إنعام كجه جي«**لورنا**» و«**كلام عراقيّات**» و«**طشاري**» و«**النبيذة**»، وزهراء عبد الله «**من التراب إلى الماء**» الصادرة عن دار الآداب، وعلويّة صبح «**أن تعشق الحياة**» الصادرة عن دار الآداب، وفضيلة الفاروق «**تاء الخجل**»، وأعمال سحر خليفة، وأخريات.

(6) يُمكن الرجوع مثلاً إلى: فيلم «ماريه نوستروم» للمخرجَيْن السوريَّيْن رنا كزكز وأنس خلف وفيلم «ميّل يا غزيّل للمخرجة إليان الراهب» 2016، ومسرحيّة «أنتيغون السوريّة، تروي فيه عشرون امرأة حكاياتهنّ مع الحرب والتهجير، ومسلسل «رسائل الحب والحرب»؛ لريم حنّا.

(7) تشكّل حرب التحرير الوطنيّة (1954 ـ 1962) التي أنهت فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830 ـ 1962) الحدثَ المهمّ في بناء الوعي الوطني في الجزائر، وتُعتبر أيضاً الحدث المهمّ والمؤسِّس للدولة الوطنيّة الذي انبثقت مع استقلال البلاد ويقال إنّ عدد الشهداء والشهيدات تجاوز المليون.

(8) حرب العشريّة السوداء في الجزائر صراع مسلّح بين النظام الجزائري القائم وفصائل متعدّدة اعتُبرت معبّرة عن أفكارٍ موالية للجبهة الإسلاميّة للإنقاذ والإسلام السياسي، منها الجماعة الإسلاميّة المسلّحة والحركة الإسلاميّة المسلّحةً والجبهة الإسلاميّة للجهاد المسلّح والجيش الإسلامي للإنقاذ وهو الجناح المسلّح للجبهة الإسلاميّة للإنقاذ. انطلق =

(فرنسا) هو المتسبّب في المعاناة والصدمات، كان الآخر الجوّاني مُمثّلاً في الإسلاميّين المتطرّفين، هو مَن أَلحق بالطفلات والمُراهقات شتّى أنواع الأذى كالتعذيب والاغتصاب أو القتل.

1 ـ في عوائق البحث: النساء والفتيات والمُراهقات بين التغييب والتصميت

قلّما اهتمّ المؤرِّخون والعلماء ومصنّفو الموسوعات بدراسة حيوات الطفلات والمُراهقات والفتيات إذ لا يعثر الباحث/ة في التاريخ العربيّ والإسلاميّ إلّا على نُتَفٍ من الأخبار في بعض كتب اللّغة والطبّ والتاريخ والتعليم والفتاوى والنوازل وغيرها. ولئن اعتبر الدارسون أنّ إهمال تاريخ الطفولة يشمل الذكور والإناث على حدٍّ سواء، وأنّه ظاهرة عابرة للثقافات تومِئ إلى منزلة الطفل في المُجتمع، فإنّ اللّافت هو تهميش أخبار الصبايا. فبينما أفاض العلماء في الحديث عن قواعد الصحّة والغذاء وأنواع الرياضة وآداب السلوك، وغيرها من المسائل التي تخصّ الطفل كانت النصائح المتعلّقة بنموّ الطفلة وسلوكها نزرة، وهو أمر يعود إلى موقع الصبيّ في النظام التراتبيّ فهو المعيار والأنموذج، ويُتمثّل على أنّه مصدر الفخر والعزوة وزينة الحياة.

أمّا سبب قلّة الاهتمام بأحوال الطفلة فإنّه راجع، في اعتقادنا، إلى التمييز المضاعف الممارس ضدّ الطفلات والمُراهقات إذ يتقاطع التمييز على أساس الجندر مع التمييز على أساس السنّ، ويترتّب عن ذلك وجود فجوة بين الولد والبنت فتكون مرئيّة الصبيّ مثلا محدودة ومظروفة إلى حين دخوله مرحلة المراهقة والإنتاج والمشاركة في العمل والجهاد... أمّا الطفلة أو المراهقة فإنّها تظلّ محجوبة عن الأعين وفي الكتب باعتبار أنّ التاريخ تاريخ الشبّان والكهول والمسنّين. ونحن إذ نشير إلى هذا المعطى نؤكّد على أنّ تهميش الطفلات والمُراهقات فعلٌ متجذّر في عمق التاريخ وهو بمكانة سُنّة ثقافيّة.

= الصراع سنة 1992 بعد الإعلان عن إلغاء نتائج الانتخابات التشريعيّة وفَوز الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ وتدخُّل الجيش لإلغاء الانتخابات.

وقد سعت الكاتبات/ب إلى مقاومة هذا التغييب فظهرت المبادرات المختلفة الهادفة إلى جعل فاعليّة الشابّات وبدرجة أقلّ، المُراهقات والمراهقين[9] في السِّلم والحرب، مرئيّة. وكانت العُدّة المنهجيّة متعدِّدة إذ نجد المنهج التاريخيّ (التاريخ الاجتماعيّ وتاريخ النساء..) والمقاربة الجندريّة والمقاربة السوسيولوجيّة والمقاربة النفسيّة والمقاربة الأمنيّة[10] وغيرها. ومع ذلك تبقى أصوات الطفلات والمُراهقات، في نظرنا، مغمورة، وتجاربهنّ على هامش السرديّات النسائيّة المركزيّة، ولعلّ للأمر صلة بالفجوة بين الأجيال وببراديغم السنّ. فمعظم الكاتبات يتناولن بالتحليل «قضايا النساء» وقلّما ينتبهْن إلى أهميّة التركيز على تعدُّد الأصوات وتمكين الطفلات والمُراهقات من التعبير عن ذواتهنّ، بل إنّ هذه المرحلة البَيْنيّة: بين الطفولة والشباب كانت «فاقدة للقيمة».

وبالإضافة إلى هَيمنة التصوّر الذكوريّ للتاريخ والتمييز على أساس السنّ، وتمثّل الحرب والنِّزاعات على أنّها مجالٌ لاختبار الذكوريّات، نُلاحِظ أنّ تحويل النساء والفتيات والمُراهقات إلى مجموعة من الرموز (الوطن، وشرف الرجل وعرضه، وملكيّته الأثيرة...) قد جعل الالتفات إلى تجاربهنَّ وأحاسيسهنّ شبه مفقود. وأدّى اعتبار الطفلات والمُراهقات موضوعاً مثيراً للقلق والخوف، ووسيلة تستعمل للضغط أو التهديد أو الإذلال أو الفضح أو شيئاً يُتفاوض حول ملكيّته إلى اقتناع الرجال بأنّ الحرب لا بدّ أن تُخاض على مستويَيْن. فهي من ناحية، حرب ماديّة تدار على الميدان وتستعرض فيها

(9) Antoine Kattar, «Espace de tradition au quotidien. À propos des adolescents libanais,» Dans, *Adolescence* (France: Edition Greupp 2007), 87-94.
Karim Mekiri, «Adolescent et traumatisme de guerre, résilience et liens familiaux: rôle des représentations familiales dans le processus de resilience,» Thèse de doctorat en Psychologie clinique et psychopathologie, Soutenue en 2011 à Rouen.
Lyne Khalil, «La question de la transmission entre mère et fille dans le contexte d›après-guerre civile libanaise. Se permettre d›aimer pour briser la répétition,» Psychologie. Université Sorbonne Paris Cité, 2019. Français.
La question de la transmission entre mère et fille dans le contexte d'après-guerre civile libanaise. Se permettre d'aimer pour briser la répétition-TEL-Thèses en ligne (archives-ouvertes.fr).

(10) نشير إلى دراسات الأمن والسلام التي ساهمت في نشر شهادات النساء ومعاناتهنّ في دارفور، وسوريا، واليمن وغيرها من البلدان بعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي 25/13 حول النساء والأمن والسلام. ونعثر بين الحين والآخر في تقارير المنظّمات الحقوقيّة والجمعيّات النسائيّة التي تهتمّ ببناء السلام أو مناهضة العنف المَبني على النَّوع الاجتماعي وغيرها، على شهادات تخصّ الطفلات والمُراهقات اللّواتي تعرَّضْنَ للتعذيب أو الاغتصاب أو التشريد (في الجزائر، وسوريا، واليمن...). يُمكن الرجوع مثلاً إلى: ضحايا الحروب: أجساد النساء وأرواحهنّ، الجرائم المُرتكَبة ضدّ النساء في النّزاعات المسلَّحة، منظّمة العفو الدوليّة، 2004، رقم الوثيقة ACT 77/072/2004.

الرجولة مقوّماتها وقيَمها فتلوح المهارات والبطولات، وهي من ناحية أخرى، حرب رمزيّة تخاض في مستوى البنية الذهنيّة إذ يتعيّن على الرجال حماية نسائهنّ وطفلاتهنّ وإثبات أنّهم ممثّلو الأنموذج المعياري «الذكورة المُهيمِنة» في مقابل الذكورة المسحوقة التي يُجبر فيها المنهزمون على قبول تأنيثهم وإفرادهم «إفراد البعير الأجرب». وليس أسر النساء والفتيات والمُراهقات في الحروب إلّا شكلاً من أشكال التبادُل بين الرجال، وإعادة ترتيب العلاقات وفق موازين القوى المتحوّلة فيصبح الاستحواذ على النساء والفتيات امتلاكاً لمَن كنّ «تحت» الآخر، وإذلالاً للعدوّ وتجريداً له من صفاته الجوهريّة، وهو أيضاً سعيٌ إلى التصرّف في البنية النفسيّة للخصم وفي تاريخه وذاكرته.

وعلى الرّغم من إصرار الدارسات على البحث عن المنسيّات والمغيّبات، فإنّ تجارب النساء والمُراهقات في الحرب ومشاعرهنّ ظلّت في الأغلب، على هامش التاريخ بسبب قرار اتّخذه الرجال يقضي بكتْم أصواتهنّ. ولعلّ خَير أنموذج معبِّر عن إرادة التعتيم والتصميت في التاريخ المغاربي تجربة الجزائريّات اللّواتي تحمّلْنَ وزرَ الحروب ثمّ فُرِض عليهنَّ الصمت. وهنا مثّل التصميت عائقاً آخرَ أمام البحّاثة.

وتتّفق الدّارسات الجزائريّات (كمرنيّة لزرق وزهيّة الصالحي وكريمة لازالي[11]...) على أنّ المُجتمع صادرَ أصواتَ أغلب الجزائريّات ومنعهنّ من الحكي فارضاً عليهنّ «طيّ صفحة الماضي المؤلِم» وكَتم الصوت وخنق العبرات. أمّا الطفلات والمُراهقات فلم يكُن بوسعهنَّ الكلام في الموضوعات المهمّة لأنّهنّ في نظر المُجتمع، قاصرات و«ناقصات عقل» وتابعات للأب/الأخ/... يأتمرْن بأوامر رجال العائلة ولا يجوز لهنّ اتّخاذ أيّ قرار، بما في ذلك رواية ما عاينّه أو خَبرْنه. إنّ غاية ما يُقبل منهنّ الخوض في مشاغل النسوان «التافهة». فكان التصميت، في مثل هذه الحالة، حجّة على تعاضد مختلف القوى السياسيّة والاجتماعيّة والبطريكيّة وتحالفها على حساب النساء والطفلات.

غير أنّ الوعي النسويّ دَفَعَ فئةً من الجزائريّات في العقدَين الأخيرَيْن على وجه الخصوص، إلى كسر حاجز الخوف وتحرير أنفسهنّ من عِبء التستّر على الجرائم

(11) Karima Lazali, «le trauma colonial,» Bing, Filmed April, 2019, video, 39:58. https://www.bing.com/videos/search?q=karima++lazali&docid=608031854432701158&mid=1FB62D0BD925001178361FB62D0BD92500117836&view=detail&FORM=VIRE.

التي ارتُكبت في حقّ النساء والطفلات فانطلقْن في الإخبار والإدلاء بشهاداتهنّ[12] أمام المحاكم وفِرق البحث الأكاديميّة ووسائل الإعلام وغيرها، وهنّ إذ يُحرّرن أنفسهنّ من ثقل السرّ المحفوظ ووجع التذكّر يُثبتْنَ أنّهنّ قادرات على مقاومة الابتزاز العاطفيّ والتهديدات التي يُوجِّهها الأبناء والأخوة إلى كلّ ناجية من هول التعذيب والاغتصاب. ولا شكّ عندنا أنّ توافر الشهادات والتصريحات في مختلف وسائل الإعلام، وحتّى الروايات المُعتمِدة على أحداثٍ من الواقع[13] يُهوِّن على البحّاثة بعض الصعوبات. ولكنّ عمليّة التنقيب عن الوثائق والمعلومات، في سياقٍ تعمّد فيه أصحابُ القرار محوَ الحجج الدالّة على تعذيب النساء أو إنكار حوادث الاغتصاب أو إهمال أرشفة تاريخ النساء، تبقى عمليّةً شاقّة وتتطلّب وقتاً طويلاً وتكاتُفَ جهودِ عددٍ من الدّارسين والمسؤولين والناشطين الحقوقيّين.

ثمّ إنّ توافُر الشهادات لا يجب أن يحجب عنّا صعوبة أخرى تتعلّق بفعل التذكّر واسترجاع الماضي، ولاسيّما إذا انتبهنا إلى أنّ العمل على ذاكرة حرب الجزائر قد تأخّر كثيراً، وأنّ أغلب الناجيات لم يخضعْنَ للعلاج النفسيّ الذي يمكن أن يساعدهنّ على لملمة جراح الماضي وتجاوُز وقْع الصدمات[14]، وهو ما جعلهنّ متحفّظات وكتومات وحريصات على القيام بالغربلة والانتقاء، ولذا وجدناهنّ يذكرْنَ بعض الأحداث ويرفضْنَ الكشفَ عن بعض المعلومات والتفاصيل، وخصوصاً تلك التي تتعلّق بحدث الاغتصاب. ومن هنا يُطرح سؤال: إلى أيّ حدّ يُمكِن التسليم بكلّ ما جاء في هذه الشهادات أو السِّيَر الذاتيّة من أخبار وروايات؟

(12) يمكن الرجوع إلى مجموعة شهادات في كتاب جماعيّ:

Combat (s) de femmes Fondation Friedrich Ebert Alger, (Décembre 2010).

(13) يمكن الرجوع إلى:

Christine Détrez, «Les écrivaines algériennes et l'écriture de la décennie noire: tactiques et quiproquos.,» *Études littéraires africaines*, 26, (2008): 19-26 https://doi.org/10.7202/1035119a.

(14) تجدر الإشارة إلى أنّ ذاكرة الحرب الأهليّة لم توضع في الغالب، على محكّ البحث الأكاديمي على الرّغم مِن إجماع الباحثين/ت على أنّ آثارها لا زالت تُعايَن وأنّها كانت وسيلة لإضفاء الشرعيّة على نظام عبد العزيز بوتفليقة ومَن جاؤوا بعده يُمكن الرجوع إلى:

Kalyvas, 1999; Martinez, 1998; Mundy, 2015; (Quandt, 1998; Roberts, 2003).

وبقطع النظر عن الفجوة الحاصلة بين توقّعات الباحثين/ات وما توفّره المستَجوبات من معلومات لا تشمل بالضرورة جميع المناطق (الأرياف، القرى...) ومختلف الأوساط الاجتماعيّة، تبقى هذه المادّة، على هناتها، أساسيّة إذ كيف يتسنّى لنا أن نعرف ما حدث للطفلات والمُراهقات في فترة الاستعمار الفرنسيّ للجزائر، وفي العشريّة السوداء؟ فلولا فعل التذكّر وما يحفّ به من صعوبات نفسيّة لما أمكن لنا التوصّل إلى إعادة بناء تجارب الفتيات والمُراهقات مع الحرب ورصد أشكال حضورهنّ في التاريخ. وانطلاقاً من هذا المُعطى كان اعتمادنا على سرديّات الناجيات ضروريّاً، ونحن إذ نُعوِّل على ما تُقدِّمه هؤلاء من مادّة لا نهتمّ بالتثبّت في مدى صدقيّة الروايات، ولا نكترث ببلاغة رواية الأحداث إنّما نُعنى برصد آثار الصدمات Trauma في حيَوات مَن كنّ بالأمس طفلات ومراهقات وصرْنَ اليوم، مسنّات، ونهتمّ بالنظر في دلالات الحرب ومختلف علاقات السلطة والهيمنة وطريقة تعامُل الراشد والمسؤول مع القاصرات والمُراهقات اللّواتي وجدْنَ أنفسهنّ وجهاً لوجه مع العدوّ في حرب لم يخترنَ تحمُّل أوزارها.

وانطلاقاً من وعينا بهذه الصعوبات المتّصلة ببناء التاريخ وعمل الذاكرة وطرائق الجمع والأرشفة، واستراتيجيّات التصميت والتهديد... نرى أنّ البحث عن آثار الحروب على حيوات الطفلات والمُراهقات من زاوية اجتماعيّة وجسديّة ونفسيّة وجندريّة يُمثّل مغامرة محفوفة بمخاطر عدّة، وهو أيضاً ورشة مفتوحة، ولا سيّما إنْ أدركنا أنّ فتح ملفّات الأرشيف العسكريّ سيكون متاحاً في غضون سنة 2022.

2 ـ وحشيّة المُستعمِر: حين يُشفع اغتصاب الوطن باغتصاب أجساد الطفلات والمُراهقات

يقرّ المؤرّخون والدارسون/ات[15] بأهميّة الأدوار التي قامت بها النساء منذ اندلاع الثورة الجزائريّة ضدّ الاستعمار الفرنسي سنة 1954 وتحت قيادة جبهة التحرير الوطني.

(15) نذكر على سبيل المثال:

Natalya Vince, «Transgressing Boundaries: Gender, Race, Religion, and «Françaises Musulmanes» during the Algerian War of Independence» in, French Historical Studies, Vol. 33, No. 3 (Summer 2010): 445-474 https://doi.org/10.1215/00161071-2010-005.
http://read.dukeupress.edu/french-historical-studies/article-pdf/33/3/445/412245/FHS033-03-05VinceFpp.pdf.

فقد كانت الجزائريّات داعمات للثورة مضحّيات بالنفس والمال والولد، وكانت منهنّ المجاهدة بالسلاح والسجينة والمُعتقَلة، والمُغتصَبة وغيرهنّ. ولكنّ هؤلاء قلّما يتوقّفون عند أخبار الطفلات والمُراهقات، ولذا مثّل استقصاء أشكال حضورهنّ في كُتب تاريخ النضال الوطني بالاعتماد على «العدسة الجندريّة» وبراديغم السنّ مهمّة شاقّة. فبالرجوع إلى مختلف الوثائق التي «أرشفت» تاريخ حرب التحرير نعثر على بعض الأخبار التي توضّح مدى اقتناع الفتيات بضرورة المُشارَكة في حرب التحرير، وهي روايات وشهادات يقدّمها، في الحقيقة، الآخر نيابة عن النساء والطفلات والمُراهقات وتَرِدُ بصيغة التعميم (طفلات، بنات، فتيات، تلميذات...) وكأنّه لا أهميّة لذكر الأسماء. يقول أحدهم في هذا السياق:»وبالفعل أسهَمت جزائرّيّات، ولاسيّما طالبات المَدارِس والجامعات، في معركِة الجزائِر قبَل الدخوِل في العمل السرّيّ»[16]. وتوضّح معلومات أخرى مبثوثة في بعض المؤلَّفات والبحوث، مكانة الفتيات والمُراهقات في الأسرة والمُجتمع، وتصف مدى خوف الأهالي من وقوع بناتهم فريسةً بيد العدوّ. يقول «الرباحي» في هذا الصدد: «ويُردِّد الجزائِريّون أنّ الأنثى في الأرياف، ما إن تدخل مرحلة البلوغ حتّى تصبح فريسةً محتملة لجنود الاحتلال، ومشكلة تؤرِّق عائلتها إلى أن تُزوِّجها أو تهرِّبها إلى أقاربها في المدينة»[17]. وتثبت ظاهرة تزويج القاصرات، في نظرنا، العنف المضاعف الذي مورس على الطفلات إذ «تخلّصت» بعض الأسر من عبء حمايتهنّ من الاغتصاب وما سيترتّب عنه من اعتداء على «الشرف» العائليّ، مِن دون أن أدنى اكتراث بمشاعر الطفلات وانعكاسات هذا القرار على ذواتهنّ.

وتُشير دراسات أخرى إلى أنّه تحسُّباً من كلّ عمليّة اقتحام قد تُعرِّض الطفلات والمُراهقات إلى الاعتداء، ابتكرت النساء طريقةً لحماية بناتهنّ سرعان ما تحوّلت إلى طقس. فما إن يصل خبر تقدّم الجنود باتّجاه الأحياء حتّى تُبادر النساء بتلطيخ وجوههنّ ووجوه طفلاتهنّ بالوحل وروث الحيوانات حتّى لا يرغب الجنود في «قضاء الوطر منهنّ»[18]. والمتأمِّل في هذه الروايات

(16) جان بيار سيريني، **إسفار نساء مُسلمات في الجزائر**، ترجمة هناء جابر، موقع orientxxi، متاح على: إسفارُ نساءٍ مُسلِماتٍ في الجزائر (orientxxi.info) https://orientxxi.info/lu-vu-entendu/article1467

(17) توفيق رباحي، «اغتصاب الجزائريّات... جرائم يُراد لها أن تموت،» **موقع القدس العربي**، متاح على: https://bit.ly/3HEKaVf

(18) توفيق رباحي، المرجع نفسه.

ينتبه إلى حرص بعض العائلات على إيجاد الحلول وابتكار تدابير التوقّي وصياغة استراتيجيّات الدِّفاع.

ويلحظ الناظر في هذه الأخبار والروايات أنّ أغلبها يأتي على لسان الآخر/الشاهد الذي يقصّ ما حدث، وهو أمر مفهوم باعتبار أنّ الضحيّة ماتت أو أنّ الناجية تمتنع في أغلب الأوقات، عن الإفصاح أو يتمّ «تصميتها» لاعتبارات متعدِّدة. ولئن كان سبب الصمت الإرادي في أغلب الحالات راجعاً إلى شعور الضحيّة بتدنّي قيمة الذات، والخوف من النتائج المترتّبة عن الحكي، وعدم القدرة على مُواجهة الأهل والمُجتمع، فإنّ التصميت هو عنفٌ آخر يُمارَس على الضحيّة فيجعلها تلوذ بالصمت وتُمارس الرقابة الذاتيّة خوفاً من التهديدات والعقوبات. وترى بعض الدارسات أنّ «صمت المرأة الجزائريّة قد يكون عملاً اجتماعيّاً وثقافيّاً وأيديولوجيّاً غير طوعيّ، وهو وسيلة لدفنِ الحقيقة الفظيعة في قبرٍ منسِيّ. فالصمت فرَضَهُ الواقع الاستعماريّ ولا يزال يُنفَّذ بواسطة تقليد ما بعد الاستعمار والمُجتمع... الصمت يصبح عملاً سياسيّاً تقوم المرأة من خلاله، بتخريب خطاب الظالمين من خلال الإبقاء على عالَمهم السرّيّ»[19].

وبالتوازي مع ما جمعه الباحثون من معلومات جاءت على لسان شهود العيان، بشأن حَيَوات الطفلات والمُراهقات في زمن الحرب، فإنّ نشر السير الذاتيّة، والروايات المعتمِدة على الوقائع الحقيقيّة والحوارات الصحافيّة مع بعض النساء أتاحَ للدارسين إمكانيّة تحليل هذه التجارب المريرة وتبيُّن حجْم الدَّمار النفسيّ الذي لا زالت الناجيات تعاني منه والممتدّ من فترة المراهقة إلى مرحلة الشيخوخة.

ويُمكِن القول إنّ تمكّن فئة من الجزائريّات بعد طول عناء، من امتلاك الصوت والقدرة على الكتابة والتعبير عن أهوال الحرب قد أبان عن الفَرق بين أن يصوغ الآخرون السرديّة ويتكلّمون نيابة عن الطفلات ويُحدِّدون مساحة الحضور وفق إرادتهم، وبين أن تكون المرأة سيّدة القول وصاحبة السرديّة فهي «مريم الحكايا» أو «أميرة» أو «فاطمة»...

(19) أنيسة الداودي، «المقدّمة: سرديّات وترجمات العنف الجنسيّ في الحروب في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا،» **موقع بوندري**، متاح على:
https://www.boundary2.org/2018/07/anissa-daoudi-introduction-narrating-and-translating-sexual-violence-at-wartime-in-the-middle-east-and-north-africa-mena-region-arabic/

ونذهب إلى أنّ تخصّص عدد من الجزائريّات في هذا الجنس من الكتابة[20] يقيم الدليل على مدى وعيهنّ بواجب التذكّر، وإسداء الدّين للنساء والطفلات والمُراهقات اللّواتي سلبهنّ المُستعمر حقّ الحياة. يقول ريكور Ricoeur في هذا الصدد: «إنّ فكرة الدّين لا تنفصل عن فكرة الميراث. إنّنا نُدين لأولئك الذين سبقونا بقسم ممّا نحن عليه. إنّ واجب الذاكرة لا يقتصر على الاحتفاظ بالأثر الماديّ الكتابيّ أو غير المكتوب للوقائع الغابرة، بل ينمّي الشعور بأنّنا ملزمون نحو هؤلاء الآخرين الذين سنقول عنهم لاحقاً إنّهم لم يعودوا موجودين، ولكنّهم سبق أن كانوا. دَفْع الدّين، كما نقول، ولكن كذلك إخضاع الميراث إلى تصفية حساب»[21].

إنّ مُسنّات الحاضر إذ يفصحن عن معاناتهنّ وأوجاعهنّ يكسرن جدار الصمت ويروين قصص العنف الجنسيّ وأشكال الاعتداء على أجساد الطفلات والمُراهقات اللّواتي لم يكنّ يفقهن معاني الحرب. إنّ ما هو»أسوأ من الاغتصاب الصمت عنه. في حالات التعذيب الجسديّ والنفسيّ والقتل وحرق القرى، يتبرّع المجرم والضحيّة بالحديث والاعتراف. في حالة الاغتصاب والعنف الجنسيّ على نساء فقيرات معدمات، بعضهنّ مراهقات، في قمّة هشاشتهنَّ، يطغى الصمت ويصبح مضاعَفاً: صمت الجلّاد وصمت الضحيّة. الأوّل يخشى (وربّما يستحي إذا استيقظ ضميره) من عواقب فعل يحطّ من إنسانيّته. والضحيّة تختفي وراء صمتها صوناً لعائلتها ومحيطها من العار الذي يُلاحِق الجميعَ بقيّة العمر»[22].

من الثابت أنّ العدوَّ اعتبر الاغتصاب وسيلة ناجعة لانتزاع المعلومات وطريقة لإذلال الآخر وممارسة تُحقِّق التواصل مع الخصم عبر أجساد النساء فضلاً عن كونه

(20) نشير مثلاً إلى عدّة روايات بخصوص الحرب ضدّ المُستعمِر والحرب: فضيلة الفاروق، **تاء الخجل.**
Maïssa Bey, *Sous le jasmin, la nuit, La Tour d'Aigues* (Éditions de l'Aube, 2004); Wahiba Khiari, *Nos silences,* (Tunisie: Elyzad 2009); Malika Mokeddem, *L'interdite*, (Paris, Éditions Grasset & Fasquelle 1993 et Des rêves et des assassins, Paris, Éditions Grasset & Fasquelle 1995); Latifa Ben Mansour, *La prière de la peur* (Paris: Éditions de la différence, 1997); Leïla Marouane, *Le Châtiment des hypocrites* (Paris: Le Seuil, 2001); Maïssa Bey, *Nouvelles d'Algérie, La Tour d'Aigues*, L'Aube, 2016, (éd. Grasset & Fasquelle, 1998), *Puisque mon cœur est mort, La Tour d'Aigues*, Éditions de l'Aube (l'Aube poche littérature 2010).

(21) بول ريكور، **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، ترجمة جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009) ص 148.

(22) أنيسة الداودي، المرجع المذكور.

استراتيجيّة من استراتيجيّات الهيمنة[23]. وبالفعل توحي النتائج المترتّبة عن اغتصاب الطفلات والمُراهقات كإصابتهنَّ بالاكتئاب وتغيير علاقاتهنّ الأسريّة وتخلخل مكانتهنّ في المُجتمع وغيرها بأنّ تحويل القضيب إلى أداة من أدوات الحرب قد أصاب الرجال في مقتل فكان الجرح النرجسيّ. ففي مُجتمع بطرِيَركي تغدو المغتصبات خارج نظام التبادل و«بضاعة منتهية الصلوحيّة» بل إنّها حين تحمل في أحشائها «ابن الحرام/الشرّ» تتحوّل إلى وصمة عار ومتّهمة يُشار إليها بالبنان.

ولئن أمكن للرجال استعادة الأرض المغتصبة فإنّ «الشرف المهدور» لم يكن استرداده متاحاً ولا غسله بالدم ممكناً بعد أن ألقت الحرب أوزارها وغادر الجنود أو عُقِد الصلح مع الإسلاميين. وبسبب الشعور بالقهر الجماعيّ تفكّكت الروابط العائليّة وصار السلوك السائد في الوسط العائليّ، تجاهل الضحيّة وتأثيمها فضلاً عن التعبير عن مشاعر الكره والخزي من ابنةٍ لم تستطع الحفاظ على شرف العائلة على الرّغم مِن وعي الأهل وعلمهم علم اليقين أنّ الضحيّة ضعيفة، ولا تملك إلّا الإذعان لمن امتلك سلطة القرار وحدّد موعد الفعل واختار شكله ومكانه بل إنّه تعمّد في حالات، أن يكون الاغتصاب أمام الأب والأخ. وليست الغاية من فضّ بكارة الطفلات، في مثل هذه الحالة، إلاّ أنثنة الرجال.

ونظراً إلى هذه العوامل الاجتماعيّة والسياسيّة والأيديولوجيّة لم يُكتب للناجيات من الحرب أن يتصالحنَ مع أجسادهِنَّ ويشفينَ من آلامهن إذ ظلّت كوابيس ما حدث تلاحقهنَّ لسنوات طوال. ولعلّ أسوء ما في الأمر أن تعيش الواحدة منهنّ فترة الاستعمار ثمّ أحداث «العشريّة السوداء»[24] فإذا بالذاكرة تعيد مرّة أخرى استرجاع التفاصيل. وهو ما حدث لإحدى الناجيات ف» كوابيس الماضي عادت تلاحقها بعد أن تقاعدت عن العمل

(23) Martin R, «An Analysis Of The Use Of Rape As A Weapon Of War With Specific Reference To The Algerian War Of Independence 1954-1962,» Academia.
(DOC) An Analysis Of The Use Of Rape As A Weapon Of War With Specific Reference To The Algerian War Of Independence 1954-1962. | Martin R-Academia.edu
Raphaelle, Branche, Des Viols Pendant la Guerre d'Algerie, in *Vingtieme Siecle. Revue d'Histoire*, no.75 (2002): 123-132. [Online] DOI: 10.3917/ving.075.0123

(24) في العام 1991 وبعد أن ألغيت نتائج الانتخابات التي كان من شأنها أن تحضر الحزب الإسلامي لاستلام السلطة، انزلقت الجزائر في حرب أهلية عُرفت باسم العشريّة السوداء استمرَّت طيلة عقد التسعينيّات. وحَصَدَ العنفُ ما لا يقلّ عن 150000 قتيلٍ و7200 مفقود.

في منتصف التسعينيّات. ما زادها سوءاً أنّ تقاعدها تزامن مع حرب داخليّة شنيعة كانت تعيشها الجزائر، بعض ممارساتها في قذارةِ ما كان يحدث للفتيات في أثناء الثورة. النتيجة أنْ أُصيبت بأزمة نفسيّة تُسمّى «الاكتئاب المهووس». ثمّ بدأت تنطفئ شيئاً فشيئاً إلى أن توفيت في أواخر 2017. تقول «باية» إنّ الرجال يخوضون الحروب والنساء يدفعن ثمنها. تقول إنّ التعذيب الجسديّ مقدور عليه، أمّا العذاب النفسيّ «فوَجَعٌ لا ينتهي أبداً، أبداً». تعترف بأنّ الموت أفضل لأنّه خلاص»[25].

3 ـ حين يفتك «الأخوة الإسلاميّون» ببنات الوطن فيستبيحون أجسادهنّ ويستحلّون دماءهنّ

هل ثمّة علاقة بين العنف الذي مارسه المُستعمِر والعنف الذي مارسه الإسلاميّون في أثناء الحرب الداخليّة؟ وهل يُمكِن أن يُعتبَر اختطاف الفتيات والمُراهقات واغتصابهنّ أو ذبحهنّ من الوريد إلى الوريد[26] علامة على اضطراب نفسيّ أو دليلاً على كره النساء؟ وهل لحادثة خلع عدد من الجزائريّات الحجاب بتحريضٍ من بعض الجنرالات وزوجاتهم سنة 1958 وتنظيم عمليّة تصوير حدث حرق الحُجُب وشائج بالعنف الجنسيّ؟ ألم يُعتبَر ذلك الحدث، في نظر حرّاس الشريعة محاولة لتدمير الهويَّة الدّينيّة والوطنيّة؟ ألم تُشارك الجزائريّات السافرات في تنفيذ مخطّط استعماري هدف إلى تشكيل هويّة المرأة «الفرنسيّة المسلمة» فكنّ بذلك في نظر الإسلاميّين، خائنات وعميلات «الطابور الخامس» وفرنسا؟

ترى المحلّلة النفسيّة كريمة لازالي أنّ الإسلاميّين أعادوا إنتاج ما فعله المستعمر بآبائهم حين أبادهم وأخفى جثامينهم. وقد أدّى حرمان الأبناء من معرفة أين قُبر الآباء إلى نتائج وخيمة على مستوى البنية النفسيّة منها الفوضى النفسيّة[27]، ومنها السعي إلى قتل الأب patricide وليس العنف الممارس ضدّ النساء والفتيات إلّا حجّة على أنّ تاريخ الإهانة والتعذيب والتوحّش لا يزال مستمِرّاً، وأنّ العنف أضحى تركة تورّث من جيل

(25) أنيسة الداودي، المرجع المذكور.

(26) حمزة عتبي، العشريّة السوداء بالجزائر.. مجازر بشعة خلّفت جروحًا لم تندمل، موقع س ن ن عربي17 تشرين الأوّل/أكتوبر 2016، تاريخ الاطلاع 20 ـ 7 ـ 2021. متاح على:
https://arabic.cnn.com/world/2016/10/17/algerian-civil-war

(27) Kitouni, Hosni, *Le désordre colonial: l'Algérie à l'épreuve de la colonisation de peuplement*, (Paris: L'Harmattan, 2018).

إلى آخر. أمّا زهيّة صالحي فإنّها تذهب إلى أنّ المرأة أصبحت هدفاً متعمّداً للأصوليين الإسلاميين منذ السبعينيّات، بسبب النظام الاستبدادي وكثرة الأزمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة. فما كان من الإسلاميّين إلّا استغلال الموقف والظهور في ثوب المنقذ والمدافع عن الإسلام والهويّة الدّينيّة[28]. وأيّا كانت أسباب التوحّش فإنّ المحصّلة هي تدمير حيوات الطفلات والمُراهقات وسرقة مستقبلهنّ وتحويل وجهة طموحاتهنَّ فأصبح السلام النفسيّ عزّ الطلب ومنتهى الرجاء بعد أن كانت أحلام الفتيات والمُراهقات تتمثّل في تحصيل الشهادة وإثبات الذات و...

لقد كان وقع الصدمة أشدّ فظاعةً بالنسبة إلى الضحايا إذ أدركت الطفلات والمُراهقات مدى قسوة «ظلم ذوي القربى» ومرارة أن تكتشف الواحدة أنّ ابن العمّ أو الجار هو المجرم الذي يُمارِس عليها شتّى أنواع العنف ثمّ يصلّي ويخطب في الناس موضّحاً لهم معاني الرحمة والأخوّة وكيف كرّم الإسلام «شقائق الرجال»... ولا نبالغ إن اعتبرنا أنّ الحرب بما هي تاريخ من العنف، باتت منقوشة في الذاكرة والبنية النفسيّة والأجساد، ولهذا السبب يكون على الناجين/ات النهوض بوظيفة تمرير الروايات والتاريخ (passeur d' histoire) من جيل إلى آخر، ومن عصر إلى آخر.

وعندما يُطلب من الضحيّة أن تنطق من أجل كشف الحقيقة يكون الأمر ذا تكلِفة عالية، ويبدو الحكي واسترجاع التعذيب أو واقعة الاغتصاب والطريقة التي تمّت بها (جماعيّة، أمام الأهل...) عمليّة محفوفة بالمخاطر، ولها بالتأكيد، عواقب وخيمة على المستوى النفسيّ والبدنيّ. فقد تتعرّض المرأة إلى نوبة بكاء شديدة فتفقد تركيزها فلا تقوى على الحكي أو التدوين، وقد يُلمّ بها اضطراب نفسيّ أو نوبة عصبيّة فتتعطّل لغة الكلام، وقد تراودها فكرة الانتحار، وقد... وهو أمر يثبت أنّ كتابة الألم أو التعبير عنه قد تساعد الناجية على اكتشاف هوّيتها وتشكيل تاريخها وترميم ذاتها ولكنّها قد تؤدّي في أغلب الحالات، إلى البقاء تحت الأسر: أسر الذاكرة المعطوبة التي تجعل فعل التذكّر قادحاً للألم وللأزمات النفسيّة فتكتشف الواحدة وهم النجاة وزيف الخلاص فيزداد وضعها سوءاً.

(28) Zahia Smail Salhi, *Gender and Violence in Islamic Societies: Patriarchy, Islamism and Politics in the Middle East and North Africa*. (IBTauris 2013), 72.

وعندما تصغي إلى شهادات النساء أو تقرأ أقوالهنّ وقصصهنّ وسِيَرِهنّ لا تملك إلّا أن تتعاطف وتتأثّر. فمن الطفلات من لم تعرف في طفولتها إلّا صوت القنابل ورائحة الدم ومشهد الجثث، ومن المُراهقات من اختطفت وغدت جارية تلبّي حاجات الأمير: يفرّغ فيها منيّه ويلطمها ويلعنها ثمّ يستطيب الطعام الذي تعدّه يداها...، ومنهنّ من رأت بأمّ عينها كيف اغتُصِبت والدتها جماعيّا[29]، ومنهنّ من حُرِمت من الماء والغذاء ثمّ منعت من الإجهاض، ومنهنّ من أُجبِرت على الزواج المُوَقَّت أو زواج المسيار، ومنهنّ من تلقّت تهديداً بسبب رفضها غطاء الرأس أو إصرارها على الذهاب إلى المدرسة على الرّغم مِن قرار منع فتح المَدارِس منذ 1994، ومنهنّ من لقت حتفها بسبب المقاومة والتمرّد على القرارات. فكاتيا بن قنّة فتاة في المدرسة الثانويّة، أخبرت والدتها قائلة: «حتى لو يغتالونني بعد يوم لن أرتديَ الحجاب مِن دون رغبتي. وإذا كان لا بدّ لي من ارتداء شيء ما فإنّه سيكون اللِّباس التقليدي القبائليّ بدلاً من الحجاب المستورد الذي يريدونَ أن يجبروننا عليه»[30]. ونتفطّن إلى أنّ من الطفلات من قتلن لأنّ أمهاتهنّ قرّرن التصدّي للإسلاميّين فرافقنَ بناتهن إلى المَدارِس ومن الفتيات والمُراهقات من عُذِّبن واغتُصبنَ لأنّهنَّ بنات «الطواغيت» الذين انتموا إلى المؤسَّسة الأمنيّة أو العسكريّة[31].

ولا يُمكِن التغاضي عن الأذى الذي لحق بالفتيات بسبب الأجهزة الأمنيّة والعسكريّة التي مارست الإخفاء القسريّ والمطاردة والاغتيال، وأخفت الحقيقة وطالبت أهالي المفقودين بأخذ التعويضات وتجاوز الماضي وجراحه. تقول أرملة تنتمي إلى «جمعيّة SOS مفقودين»: «البنات لا يزلنَ ينتظرنَ أباءَهُنّ. لا يأتينَ معي ليوم الأربعاء لأنّ لديهنَّ ذكريات موجعة عنه. فقد كنت آخذهنّ معي إلى الاجتماعات عندما كنّ صغيرات. كان مؤلمًا أن يسمعنَ عن والدهنَّ ثمّ يذهبْن إلى البيت مِن دونه... لم يكُن لديّ سوى

(29) Karima Bennoune, «Your Fatwa Does Not Apply Here: Untold Stories from the Fight Against Muslim Fundamentalism,» WW Norton & Co, USA, (2013), Bing, filmed 2016, Video 33:17. Enquête édifiante sur les violences psychiques de la colonisation française en Algérie-Bing video, Zahia Smail Salhi, Lecture: *Gender and Violence in Algeria: Women's Resistance against the Islamist Femicide*, Nov. 1, 2011, disponible à: https://bit.ly/3B6NHcf. https://arabic.cnn.com/world/2016/10/17/algerian-civil-war Algériennes, 30 ans après-Bing video. URAit-Hamou_FundamentalismAlgeria.pdf.

(30) الداودي، المرجع المذكور.

(31) الداودي، المرجع المذكور.

دموعي. هو كان ربّ البيت ويتحمّل كلّ المسؤوليّة ثمّ فجأة اختفى وأصبحتُ وحدي مع ثلاث فتيات صغار. ماذا يُمكِن أن أفعل؟ أين أذهب؟... ليس من المُمكِن أن يكون هناك مصالحة مِن دون حقيقة. ليس هناك عدالة في الجزائر»[32].

وهكذا يلوح كيف يُحرَم الأبناء من السند العاطفيّ والمادّيّ والرمزيّ، ومن الاستمتاع بالطفولة وبناء العلاقات مع الأقران، ويمنع عليهم ممارسة الفضول وطرح السؤال والاستفسار عن الواقع، ومعرفة ما يجرى كلّ ذلك بدعوى حمايتهم. ولا يهمّ ما عاينه الطفل/ة أو ما سمعه وما فهمه، وحدهم الراشدون يحتكرون حقّ الفهم والشرح والتحليل والفعل وإضفاء المعاني. ولذا صارت استراتيجيّات تجنّب قول الحقيقة الموجعة امتيازاً من امتيازات «الكبار».

4 ـ حين تحط الحروب أوزارها يحلّ الوصْم والنبْذ: أبناء وبنات المُغتصَبات

ما الذي يحدث حين تُقدم طفلات الأمس على البوح بعد أن غزا الشيب مفرق الرأس؟ هل الحكي علامة انتصار على سنوات وأد الكلمات وممارسة الرقابة الذاتيّة على وعي؟ وهل يُعدّ تجاوز الخوف وتحرير الكلمة تحوُّلاً من وضع الضحيّة إلى وضع التمكين، وطقس عبور من مرحلة المعاناة إلى مرحلة تجاوز الصدمات؟ وهل إنّ كسرَ حاجز الصمت هو علامة دالَّة على امتلاك السلطة ومُواجَهة العدوّ/الخصم/النظام/المُجتمع؟

تذهب أنيسة داودي إلى أنّ وعي النساء بقيمة سرد قصص العنف ودوره في تحديد مواقعهنّ هو الذي يدفعهنَّ إلى البوح وتحفيز الأخريات على اتّخاذ هذا القرار. إنّهنّ يُدرِكْن «جيِّداً قيمة سرديّات النساء في خلخلة وزعزعة الخطابات الراسخة وفي إزالة طبقات من التشويه والتحريف والهدف المرجو هو تغيير الحاضر والمستقبل»[33].

(32) هبة ناجيب، «وحدها الحقيقة يمكنها شفاء هذا الألم: جزائريّات يتحدّثْنَ عن رحلة بحثهنّ عن المُختطفين،» ICTJ، متاح على: https://www.ictj.org/news-type/focus-ar?page=6&language%5B0%5D=en

(33) أنيسة داودي، مرجع مذكور.

لقد أمكن لفئة من الجزائريّات تقديم شهاداتهنّ حول الجرائم التي اقترفها المُستعمِر في مناخ ارتفعت فيه أصوات المؤمنين بالحرّية والعدالة والمُساواة مطالبة الدول الاستعماريّة بمُواجهة تاريخها وتقديم الاعتذارات الرسميّة والتعويضات للضحايا أو أسرهم ومحاسبة المُجرمين وتمكين البحّاثة من الاطّلاع على الأرشيف. ولم يكُن بإمكان النظام الحاكم أن يمنع النساء من سرد قصصهنّ باعتبار أنّ المسألة لا تتعلّق بحاجة هؤلاء إلى إزاحة الهمّ الجاثم على صدورهنّ بل هي تصفية حسابات تاريخيّة وتفاوض رسميّ في إطار بناء العلاقات الدوليّة تتمثّل غايته في إعادة ترتيب علاقات القوّة عبر انتزاع الاعتراف بالسيادة الوطنيّة من جهة، وإدانة الآخر والتشهير بالجرائم التي ارتكبها في حقّ الجزائريّين، من جهة أخرى.

وفي المقابل لم تكُن مُواجهة ما اقترفه الإسلاميّون بحقّ النساء والطفلات والمُراهقات يسيرة لأسباب تتعلّق بالخوف والترهيب والضغوط المُمارسة على الضحايا من جهة، ولإرادة سياسيّة اختارت المصالحة ومأسَسة الإفلات من العقاب على حساب مُعاناة النساء بل إنّها سنّت قانون العفو أو السِّلم العامّ[34] الذي يقف عائقاً أمام بَوح النساء ويحول دون مطالبتهنّ بمُحاسبة المُجرمين. وهكذا يتّضح أنّ تدبير السياسة شأن ذكوريّ بامتياز إذ يحتكر الرجال السلطة ويتّخذون القرارات، بما فيها قرارات خوض الحرب والنِّزاع، وكذلك إعلان الهدنة وحسْم الصراعات وسنّ القوانين. إنّه تفاوُضٌ جندري بين النظام السياسيّ والإسلاميّين والمُجتمع البطريركيّ، وهي علاقات مبنيَّة على القوّة تُدار ضدّ مصالح النساء اللّواتي يُعامَلْنَ على أساس أنّهنّ قاصرات وفاقدات للأهليّة ونصف مواطنات فلا يُستشرْنَ ولا يُشاركْنَ في صنع القرارات.

وفي المقابل يُطلب منهنّ تحمُّل التبعات بكلّ صبرٍ وجَلَد، ثمّ يُفرَض عليهنَّ الصمت وتصديق «السرديّة الرسميّة» و«الحقيقة الوحيدة»، وهو لعمرنا ظلم مضاعف يُولِّد الشعور بالقهر والغبن، وهي سياسة قائمة على تحويل الناجية إلى ضحيّة الإسلاميّين والنظام على

(34) ظهر في سنة 1999 قانون الرحمة وبدأ تنفيذه سنة 2005 بعد عرضه على الاستفتاء. غير أنّ المُطالِبين بالحقيقة والعدالة يسمّونه قانون إنكار حقوق ضحايا الإرهاب وأسرهم، نذكر هنا ما صرّحت به شريفة خضار، رئيسة ومُؤسّسة جمعيّة «جزائرنا»

«LA DIFFICILE RECONCILIATION NATIONALE EN ALGERIE,» Youtube, 25 sept. 2013-accessed 26-7-2021 https://www.youtube.com/watch?v=FOWzekR-juM.

حدّ سواء ثمّ التحكّم في مشاعرها وأهوائها (الغضب، الألم، الرغبة في الانتقام...). ولكن أنّى للناجية التي أصبحت امرأة مشوَّهة وعاجزة عن الحركة وفقدت الأهل والمُمتلكات والذكريات وعاشت محنة التشريد، أن تقبل مشاهدة جلّادها وهو يرفل في النعيم بعد أن أضحى من أغنياء البلد محصَّناً بنظامٍ سياسيّ اختار تجاهَلَ مطالب النساء[35].

ويلوح جليّاً أنّ تمكّن النساء من انتزاع حقهنّ في البوح وبناء سردياتهنّ وصناعة تاريخهنّ هو شكل من أشكال المقاومة لكلّ الذين تصرّفوا في عواطف النساء والطفلات والمُراهقات فشكّلوها على هواهم، وتحكّموا في مصائرهنّ وأجسادهنّ وذاكرتهنّ وتاريخهنّ. إنّها مقاومة تُدار على أكثر من واجهة: أوّلها مقاومة النظام المستبدّ صانع الخطاب الرسميّ الذي حوَّل المجاهدات إلى أيقوناتٍ ورموز قوميّة وجرَّد مَن بَقينَ على قيد الحياة من المواطنة التامّة والفعليّة، ومنعهنَّ من المشاركة في صنع القرار وبناء الدولة الوطنيّة، وحدّ من فاعليَّتهنّ وطموحاتهنّ. ثمّ إنّها مقاومة للنظام الذي تعمّد الحديث عن الأبطال الأشاوس الذين تصدّوا للأصوليّة الدّينيّة وحَجَبَ في الوقت ذاته، تضحيات النساء والفتيات والمُراهقات.

أمّا ثانياً فهي مقاومة النسيان والتصميت والإنكار والقهر والتسلُّط، وكلّ أشكال العنف الرمزيّ إذ استُبعدت المجاهدات ذوات الثقافة الفرنسيّة «المفرنسات» من المشاركة في كتابة تاريخهنّ في مرحلة تبنّت فيها الدولة الوطنيّة سياسات التعريب، ومن هنا تولّى المدافعون عن قداسة اللّغة العربيّة وبلاغة الفصحى كتابة السرديّة نيابة عن النساء اللّواتي استُبعدنَ بسبب عدم إتقانهنّ لغتهنّ الأمّ. ولا عجب أن تُخاض المعركة على أرض اللّغة وتُسيَّج داخل نظام الثنائيّات المتضادّة: الذكورة/الأنوثة، الرجل/المرأة، المقدّس/المدنّس، القويّ/الضعيف، الفصحى/الفرنسيّة... ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ إذ أَمرت الناجيات من وحشيّة المُستعمِر والإسلاميّين بالتزام الصمت.

ويتمثَّل الوجه الثالث في مقاومة الأعراف والتقاليد والقيَم المعياريّة التي تفرض لجْم النساء عن الكلام تارة باسم العار والخجل و«الحشومة»... وطوراً باسم الطاعة ووجوب الإذعان لما تقرّره القبيلة/العائلة/المُجتمع/النظام/الأحزاب... فاللّواتي خرجْنَ إلى العلن

(35) المرجع السابق.

وتمكَّنّ من كشف المستور وتحدّثن عن موقف الأهل من النضال النسائيّ اضطررنَ إلى دفع الثمن[36]. فقد نبذت عدّة أسر بناتها اللّواتي ناضلْنَ ضدّ الاستعمار أو تصدّين للأصوليّة الإسلاميّة، بسبب الاختلاط أو تعرّضهنّ إلى الاغتصاب[37]. ومن الأبناء من تبرّأ من أمّ «عرّته» أمام الجميع و«فضحته» فلم تعد في نظره، مقدّسة بل جسداً لوّثه الآخر فجعله مدنّساً، ومن الأبناء من فضّل المنفى على البقاء بجوار أمّ كشفت المستور ولم تبال بِـ«سمعة» الرجال ومواقعهم. وبدل الاحتفاء بمن شاركن في ملحمة الكفاح الوطنيّ والشعور بالفخر والاعتزاز بنضال الأمّهات قضت الجماعة بإنزال عقوبة القتل الاجتماعيّ والرمزي على عدد من النساء لأنّهنّ «فرّطن» في الشرف والتقاليد والأعراف.

وانطلاقاً من هذه التصوّرات الاجتماعيّة تحوّلت الضحية إلى مُدانة ومسؤولة عن إلحاق العار بأهلها وذويها، ولعلّ أصعب ما في الأمر مواجهة نظرة الآخر إذ تبقى في نظره «المرأة المُغتصَبة». ولا شكّ عندنا أنّ تحويل أجساد النساء إلى ساحة صراع حول الشرف والعرض والعفّة والطهر، واستهداف أجساد الفتيات والمُراهقات ووضْعها تحت المراقبة والاستغلال المبكّر عبر افتضاضها عنوة أو بعَقْد صُوَرِيٍّ وبفتوى «زواج المتعة» و«زواج المسيار» يضع الجندر/النوع الاجتماعيّ في قلب رحى الحروب والصراعات. فمن أجل إذلال الرجال، والنيل من العدوّ تُختطف الطفلات والنساء ويُغتصبْنَ وينكّل بهنّ، وبسبب الخوف من الأب أو الأخ أو الابن أو النظام البطريركيّ تُصادَر إرادة النساء وحقّهنّ في الاختيار: الكتم أو الإفصاح، والتجاهل أو أداء واجب الذاكرة والمُطالبة بالعدالة الجندريّة. وهكذا نتبيّن دَور التراتبيّة الهرميّة والنظام الجندريّ والعلاقات المبنيّة على التسلُّط في جعْلِ أرواح النساء ومصالحهنّ أقلّ قيمة ووزناً من أرواح الرجال وامتيازاتهم.

(36) تجدر الإشارة إلى أنّ أوّل من كشف النقاب عن حوادث الاغتصاب التي اقترفها الجنود زمن الاستعمار لويزات Louisette Ighilahriz التي نشرت شهادتها في صحيفة *Le Monde* بتاريخ 2000/6/20، وكانت النتيجة مُعاناة البنت من حالة توتّر عصبيّ، وقطيعة مع الابن الذي لم يُسامح والدته على ما أقدمت عليه. أمّا المجاهدات القدامى فقد لمْنها على هتْكِ السرّ. وعلى الرّغم من كلّ ما حدث لم تندم لويزات على الإفصاح والحكي فقد كان العبء ثقيلاً جدّاً. يُمكن الرجوع إلى:

https://enseignants.lumni.fr/fiche-media/00000001886/temoignages-de-victimes-de-la-torture-pendant-la-guerre-d-algerie.html (23 novembre 2000 accessed 20-7-2021).

(37) الداودي، مرجع مذكور.

ومهما يكُن الأمر بشأن تعامُل الأهل والمُجتمع والنظام مع الناجيات اللّواتي اتّخذنَ قرار البَوح والإخبار عن الاعتداءات الوحشيّة التي استهدفت النساء والطفلات والمُراهقات، فإنّنا نُقدِّر أنّ ما يجمع بين الضحايا أكثر ممّا يفرّقهنّ؛ إذ تلتقي أغلب الناجيات من بطش المُستعمِر مع الناجيات من الحرب الأهليّة الدامية في الشعور بخَيبة الألم، والإحساس بالقهر واليأس. وتشترك الناجيات في إحساسهنَّ بأنّ المُعاناة مستمرّة حتّى بعد البوح. فكلّما استرجَعتِ الواحدة الأحداثَ اتّسعت مساحةُ الألم وكَبُر الوجع. ولعلّ الحكي يكون أشدّ صعوبة عندما يكون المُعتدي هو ابن الوطن بل هو من جماعة تزعم أنّها تتّبع ما جاء في القرآن وسيرة الرسول من آياتٍ تحثّ على التمسّك بالقِيَم الإنسانيّة وتكريم النساء. ويزداد الأمر تعقيداً عندما تكتشف الناجيات أنّ التصميت قرارٌ يصدر عن الأهل وكذا عن ممثّلي السلطة السياسيّة الذين رأوا أنّ كشف الناجيات عن الّذي حدث هو شكلٌ من أشكال التمرّد، وهو أيضاً مساسٌ بهَيبة السلطة الأبويّة السياسيّة التي تتماهى مع فكرة تقديس الأب وتمجيد الحاكم. ويزداد القهر عندما تُدرك الناجيات أنّ ملفَّ ضحايا العشريّة السوداء أو الحمراء لا يزال يُستعمَل أداة سياسيّة في إدارة الصراع حول المصالح.

وسواء تعلّق الأمر بالناجيات من عنف المُستعمِر أو من عنف «ذوي القربى»، فإنّ ما يجمع بين الضحايا هو الوعي بالشرخ الذي حدث في مستوى مرآة الهويّة le miroir identitaire وبفقدان التوازن، بحيث تصعب إدارة المشاعر والتحكّم فيها، فضلاً عن الإحساس بتدنّي القيمة والشعور بالقهر والغبن وكره الذات والآخر[38]. ولا شكّ أنّ الصدمة تمزّق الشبكة الرمزيّة والنسيج اللُّغوي القادر على ضبْط الأهواء (الغضب، القلق،

(38) من المفيد الاطّلاع على:

BOUDARÈNE, M «*Violence terroriste en Algérie et traumatisme psychique*», Stress et trauma, 1, 2. 2001.

BOUDARÈNE, M. «*Terrorisme en Algérie. Quel devenir pour les liens filial et social*?», Stress et trauma, 2, 4. 2002.

Therese, Brosse, *L'enfance victime de la guerr*) Paris, Unesco. 1950).

Yve, Deloye and Claudine Haroche, *Sentiment d'humiliation* (Paris: In Press. 2006).

Leïla Sebbar, *Une enfance dans la guerre*. *Algérie 1954-1962* (Bleu autour, 2016).

يتضمّن هذا المؤلّف الجماعيّ شهادات مَن كانوا زمن الحرب أطفالاً وروايتهم الخاصّة للأحداث:

Ali Chibani, «La guerre d'Algérie vécue par les enfants,» la plume francophone, accessed 1-7-2021

eïla Sebbar, «Une enfance dans la guerre. Algérie 1954-1962» | La Plume Francophone (la-plume-francophone.com).

التشنّج، الخوف...) وتحوّل الذات إلى ضحيّة متقوقعة على عالمها الداخليّ، وهاربة من المواجهة وميّالة إلى مُمارسة التدمير الذاتي، وفاقدة لميكانزمات الدفاع. وهنا تلوح فوضى الحواسّ، ويبرز العجز عن إضفاءِ معنىً للوجود، وتبدو المُعاناة ظاهرةً للعيان.

إنّ نتائج الحرب لا تقف عند هذا الحدّ، إذ يتضاعف الشعور بالذلّ ويُهيمن كره الذات وكره الجسد على الناجية كلّما خرج الحميمي إلى العلن أو صارت المغتصَبة أُمّاً تحمل دليل إدانتها. فإذا بالولد يؤدّي وظيفة الشاهد والدليل الذي يذكِّر الناجية بالسرّ المحفوظ الذي حاولت كتمه فتنشط الذاكرة. وهنا تتولّد عن المأساة الأولى مأساة ثانية فيغدو الولد/البنت وريث الصدمة والمحنة ويصير الضحيّة رقم 2 بعد أن لفظ المُجتمع أبناء المُغتصَبات ووصَمهم إلى الأبد وعمل على تأثيمهم وتحميلهم المسؤوليّة وحوّلهم إلى «كبش فداء»[39]. وهنا تُوجّه أصابع الاتّهام إلى المتواطئين مع النظام البطريركي: أولئك الذين أدركوا أنّ لا ذنب للأمّهات والوليدات والصبيان ومع ذلك حكموا على الجميع بالنبذ.

وإذا علمنا أنّ المُهيمَن عليه قد يميل أحياناً إلى لعبِ دَورِ الجلّاد، فهمنا لِم تنقلب الناجية التي عانت كلّ أشكال العنف المُمارَس عليها، إلى جلّاد، فتصبح بدورها مُمارِسةً لخطاب تأثيم الابن أو البنت. وبناءً على هذه الحالات المُعايَنة تلحّ الجمعيّات النسويّة على ضرورة توفير العلاج النفسيّ لضحايا الحروب.

خاتمة

يقودنا الاطِّلاع على شهادات الناجيات إلى الإقرار بالفرصة التي مُنحت لمَن تمكّنت من الفرار والنجاة حتّى تقدّم شهاداتها وتترك أثراً يدلّ على وجودها وحياتها وتاريخها وهويّتها. فلولا البقاء على قيد الحياة لما تسنّى للناجيات الاشتغال على الذاكرة الفرديّة والذاكرة الجماعيّة وإثبات مدى قدرتهنّ على المواجهة والمقاومة، وتصميمهنَّ على الإدلاء بهذه الشهادات التي تصدر عن الأنا التي خبرت ويلات الحرب وعاشت الصدمة وقاومت النسيان والقمع والتصميت وقرّرت النطق على الرّغم من التهديد والابتزاز

(39) Salah-Eddine Abbassi, Bernard Gaillard Érès, «Les enfants nés dans les maquis terroristes en Algérie», *Enfances & Psy*, N° 57 (April 2012): 137-144. https://www.cairn.info/revue-enfances-et-psy-2012-4-page-137.htm.

العاطفيّ. وليس توفير الشهادات إلاّ محاولة للمشاركة في كتابة التاريخ وإنتاج سرديّة نفترض أنّها تتجاور مع سرديّة رسميّة وسرديّات بناها المؤرِّخون والدارسون الجزائريّون والعرب والغربيّون.

ولولا الوعي الثاقب والشعور بالمسؤوليّة والاقتناع بواجب الذاكرة لما اتّخذت مجموعة من الناجيات قرار البوح في سياق سياسيّ واجتماعيّ وأيديولوجيّ لم يشجِّعهنَ على الكشف عن الحقيقة، ولولا التضامُن النسويّ والدعم الذي وفّرته بعض الجمعيّات لما كان بإمكان الناجيات تمرير الذاكرة الجريحة إلى الأجيال الجديدة، وإنتاج سرديتهنّ والكشف عن الصدمات والهشاشة والآلام.

ولكن يجوز لنا في هذا المستوى، أن نتساءل هل إنّ الفئة التي تجاوزت مرحلة الترهيب والهلع والإحساس بالذلّ والإهانة والضعف استطاعَت أن تنعم بالسكينة النفسيّة؟ وهل يُعدّ تحرير الكلمة حجّة على «التمكين» وإمارة على القدرة على الفعل في الواقع وفاء لأرواح الضحايا وإصراراً على تغيير واقع الجزائريّات وتوعيتهنّ بضرورة استكمال النضال؟ ثمّ هل أنجزت الناجيات بالفعل، طقس الحداد عندما كسرْنَ حاجز الخوف وحرّرن الكلمة؟ وهل مكّنهنّ الحكي والتفاعل مع الآخرين من استعادة التوازن النفسيّ، وترميم الذات ولملمة الجروح وطيّ صفحة قاتمة من مسارهنّ؟ وهل أمكن للأمّهات مساعدة أبنائهنّ على التعامل مع الصدمة باقتدار: صدمة ما حدث للأمّ وصدمة الِابن/ة عندما يكتشف أنّه ابن العدوّ/ابن الأجنبيّ/المُستعمِر/ابن المغتصِب، ابن الشرّ؟

يجمع المحلِّلون النفسانيّون على أنّ البَوْحَ هو أوّل خطوة للخروج من حالة الصمت أو الإنكار أو الشعور بالذنب. فالكلام هو علامة على استعداد الناجية على خوض مسار جديد في حياتها تحاول فيه التدرّب على ممارسة الحكي أو التسريد للتعبير عن الآلام والعذاب وهو في الوقت ذاته، حجّة على رغبة الضحيّة في تجاوز مرحلة الشعور بالخجل والاستيحاء من قول الحقيقة إلى مرحلة إدراك الواقع من منظور مختلف. ولعلّ البوح هو شكل من أشكال مَنْح الأخريات فرصة الحضور فتغدو مَن سكتت عن الكلام خوفاً أو جبناً، ومَن اغتيلت «غائبة/حاضرة «بالقوّة، ويُصبِح مَن أَزهق أرواح الطفلات والمُراهقات وأَمَرَ بالتمثيل بأجسادهنّ مُداناً من الجميع. وإذا لم يكن بمقدور مَن قُتلْنَ برصاص العدوّ أو تحت التعذيب التعبير عن الغضب والألم والصراخ... أو الكتابة، فإنّ من واجب

مَن وُلِدت من جديد أن تواصل النضال من أجل اختراق ثقافة الصمت وكشْف الحقيقة وتحقيق العدالة. إنّه دَيْن في الرقاب لا بدّ أن يؤدّى حتّى تُصبح الجزائريّات مواطنات لا تابعات. بيد أنّ هذه الأمانة تحمّلتها، في الأغلب، الحضريّات والمتعلّمات في مقابل صمت مَن خبرْنَ العنف والتصميت والترهيب في أوساط اجتماعيّة مغايرة.

ولا شكّ عندنا أنّ أغلب الناجيات يَعتبرْنَ أنفسهنّ ميّتات اجتماعيّاً ورمزيّاً وموؤودات، ولكن نرى أنّ امتلاك حقّ البوح يحوّلهنَّ من حالة اللّافعل والسلبيّة إلى حالة الفعل الإيجابيّ لعلّهنّ يُساعِدن الأخريات على التحرّر من تركة الماضي واستعادة إنسانيّتهنّ المهدورة. أَليس الفعل حجّة على الوجود: فأن أتكلَّم وأكتب وأفعل إذاً أنا موجودة. وبالكلمة يتعالى المرء على منزلته الماديّة، وعلى النَّفس الأمّارة بالسوء والقوّة الغضبيّة والتوحّش فيتأنسَن.